آخر الأيام

مكرم مشرقي

آخر الأيام

مكرم مشرقي

مقدّمة

آخر الأيام... تعبير رائج نسمعه كثيراً في كافة الأوساط. يستخدم الناس بجملتهم في مناسبات عديدة هذا التعبير مرارًا وتكرارًا. أحيانًا يقولونه وعلامات التعجب ظاهره على وجوههم ، وأحيانًا يحلّ الألم أو اليأس فيُصعدون زفرةً أو نهدةً وهم يتمتمون... هذه " أخر الأيام ".

إنه تعبير يُظهِر استفحال خراب الإنسانية بجملتها بسبب عدم وجود علاقة حقيقيّة وصحيحة مع الله. هذا الخراب يظهر بشكل واضح في كل ناحية من نواحي الحياة، فمنذ سقط الإنسان في الخطية وابتعد عن محضر الله، والإنسانية تعيش دورًا بعد دور في جو الخطية البائس.

تشهد على ذلك الكتابات المقدّسة وكذلك المؤرخون والرواة يسردون قصصًا عن قساوة الإنسان عبر التاريخ. أمّا الحفريات الأثريّة فتكشف عمّا خلّفته أيدي البشر من دمار وانتهاك لصورة الله التي خلقوا على مثالها.

لكن في الأيام الأخيرة يظهر أكثر واكثر انحدار الانسان الأخلاقي الى أسفل الدرك. سنحاول في هذه الصفحات أن نستعرض الحالة المريعة، ليس دون أن نقدّم الحل الإلهي للمشكلة وهذا ما يفعله الله لكل منّا، فهو أوّلاً يصارحنا بحقيقة مرضنا كطبيب حكيم وأمين ومن ثمّ يقدّم لنا العلاج. المشكلة صعبة حقًا والوضع مؤلم الى أبعد الحدود وليس غير الله من يستطيع لمس هذه الحالة المستعصية وشفائها. هو

الذي خلق الإنسان وهو القادر أن يخلصه ويشفيه الى التمام، ان اراد الانسان هذا العلاج الالهي!

■ الكلام الأوّل

عالمين هذا أولاً انه سيأتي في آخر الأيام قوم مستهزئون سالكين بحسب شهوات انفسهم، وقائلين: " اين هو موعد مجيئه"؟

يتفوّه كثيرون في أيامنا بكلمات السخرية والاستهزاء ضد كلمة الله المقدّسة وهم يعيشون حياة التسيّب الأدبي بما يتوافق مع شهواتهم الخاصّة. انهم يديرون ظهورهم لله ولكلمته وبالتالي ينغمسون في ملذّاتهم ومجونهم دون خجل. الرادع الوحيد لهم في اشباع شهواتهم هو مجئ المسيح للدينونة، لذلك يشككون بل وينكرون ذلك ليواصلوا حياة الاستباحة التي اختاروها لأنفسهم.

في القسم الأول من هذا الكتاب سنتأمل مقطعًا شبيهًا ومفصّلاً من كلمة الله، كُتب قبل نحو ألفي سنة. امامنا رسالة رعوية كتبها كهل مختبرٍ لشابٍ محبوب، يحذّره فيها من حالة الناس الأخلاقية في الأيام الأخيرة. فيها أوصاف قاسية بل ومرعبة، لذلك لا نستغرب أن بداية هذا المقطع تبدأ بتنبيه شخصي " اعلم هذا" كما ويصوّر الطابع العام لهذه الأزمنة بتعبير" أزمنة صعبة".

على هذا الأساس أرجو القارئ الكريم أن ينصت مليًا لما يريد الله أن

يقوله من خلال هذه القائمة القاتمة، لعله يخرج بفائدة روحية لحياته.

ولكن إعلم هذا أنه في الأيام الأخيرة ستأتي أزمنة صعبة، لأن الناس يكونون محبّين لأنفسهم، محبّين للمال، متعظّمين، مستكبرين، مجدّفين، غير طائعين لوالديهم، غير شاكرين، دنسين، بلا حنو، بلا رضى، ثالبين، عديمي النزاهة، شرسين، غير محبّين للصلاح، خائنين، مقتحمين، متصلّفين، محبين للّذات دون محبة لله، لهم صورة التقوى، ولكنهم منكرون قوّتها. (رسالة بولس الرسول الثانية الى تيموثاوس 3: 1- 5).

■ الناس يكونون محبّين لأنفسهم

لا شكّ ان احدى أبرز صفات الناس في الأيام الأخيرة هي محبة الذات. صحيح أننا جميعًا بطبيعتنا نحب أنفسنا لكن الأنانية البغيضة هي المقصودة هنا. قد يقول الشخص أنه يحبّ الله وكل الناس، لكن أعمال كلٍ منّا تشهد علينا وتُظهر أنّ محبتنا لذواتنا ورغبتنا في إرضائها مستفحلة، وهي كما سنرى محور تدور حوله الموبقات والشرور جميعًا، وهكذا يعيش الإنسان لنفسه فقط، محاولاً أن يرضيها بشتى الوسائل المتاحة.

إننا نرى بوضوح محاولات الانسان لإظهار نفسه، ولكي يستمر الشخص متربعًا على عرش الذات، نراه لا يتورع عن ازدراء الآخرين،

بل قد يدوس غيره غير عابئٍ بأحدٍ... إلاّ بنفسه؟

محبّين للمال

من الطبيعي أنّ محبة الذات تظهر في محبة المال. دعنا نقول بوضوح أن المشكلة ليست في المال والذي يستعمله الجميع كوسيلة للتعامل في البيع والشراء بعد أن انتهت طريقة المقايضة في العالم تقريبًا. إنّ المشكلة الصعبة هي "محبّة المال" التي هي أصل لكل الشرور ومن يسير في ركب هذه المحبّة الفاسدة، يضلّ عن الإيمان والاتكال على الله ويسبّب لنفسه ولغيره آلامًا كثيرة.

كان الملك سليمان غنيًا، لكنه كان حكيمًا أيضًا وقد وضّح الفرق بين المال كبركة وبين التعلّق المرَضي به فقال: " كل إنسان أعطاه الله غنى ومالاً وسلّطه عليه حتى يأكل منه ويأخذ نصيبه ويفرح بتعبه فهذا هو عطية الله". لكنه قال أيضًا: " من يحب الفضة لا يشبع من الفضة ومن يحب الثروة لا يشبع من دخل" (سفر الجامعة ٥: ١٠، ١٩). وفي طريق السعي الحثيث اللاهث نحو الغنى هناك نجاساتٍ كثيرة فالمستعجل الغنى لا يبرأ (سفر الأمثال ٢٨: ٢٠).

أرجوك! لا تظنّ أنّ هذا النوع من الإدمان هو للأغنياء فقط، فقد تكون فقيراً أو متوسط الحال، لكنك تفكّر دائماً بلهفة وتحلم بولع بالمال، بل وتلهج به كل الوقت... أليست هذه هي العبودية بعينها؟

افحص نفسك! هل كلّ شئ في نظرك قابل للبيع؟... هل يشمل ذلك الضمير والأخلاق والقيم؟ إن كان جوابك نعم، فأنت إذن وللأسف غارق في مستنقع محبة المال، والله وحده قادر أن ينقذك منه.

■ متعظّمين

تستمر السلسلة إذ أنّ محبة المال تجعل الناس متعظمين مفتخرين بكثرة غناهم، يسعون لتحقيق كل ما تشتهيه نفوسهم.
آه... لو كان الإنسان يذكر دائمًا أنّ كل عطية صالحة وكل بركة روحية ونفسية واجتماعية وماديّة هي من الله، لما كان للتعظّم مكان! لكن تذكّر العطية والتمتع بها، دونما تقدير للّه الذي أعطاها، تقود الإنسان إلى الافتخار بعلمه أو كثرة أمواله أو أملاكه.
طبعًا هناك الكثيرون من المحسنين الأسخياء، وما أحوج مجتمعاتنا لمثل هؤلاء، لكن كثيرين منهم يبتغون الشهرة والتقدير والمكانة وليس العطاء البعيد عن الأنظار، أي العطاء لمجرد العطاء.
نسمع عن فلان أنّه قدّم أو سيقدّم مبلغًا كبيراً من المال لمؤسسات أو لمحتاجين، لكنك تجده يحرص على نشر ذلك مرارًا وتكرارًا في وسائل الإعلام وبشكلٍ مفصّل حتى نملّ من السماع عن ذلك المشروع والإشادة المتكرّرة بهذا المُحسن العظيم!!

■ مستكبرين

أراد الناس قديمًا أن يصلوا إلى السماء فبنوا برج بابل فبلبل الله ألسنتهم فلم يصلوا إلى الله بل وخسروا حتى لغة التواصل فيما بينهم. إن المتكبّر يعبّر بالفكر والقول والعمل، أنه أفضل من الآخرين... أحسن وأشرف وأعلى من الكل. يبدأ أحدهم بالافتخار بمركزه الاجتماعي أو بوضعه الاقتصادي وأحيانًا بحَسَبه ونسبه وربما بموهبة باركه الله بها، ويا للعجب! بدل التواضع وشكر الله على عطاياه، ترى الكبرياء والانتفاخ يسود على البشرية بجملتها.
قمة السخرية هي أن الصغير والكبير يعلمان أن حسابًا ضخمًا في البنك أو لقبًا جامعيًا أو مركزًا اجتماعيًا ومعها كل الممتلكات من عقارات وسيارات وغيرها هي اشياء وقتية. منها ما سيزول أو يصبح قديمًا وهناك ما سيفقد بريقه بمرور الزمن... فعلام الافتخار!؟

■ مجدّفين

لاحظ أن الكبرياء تقودنا للهجوم بل والتعدّي على الآخرين بكلامنا فنؤذيهم مثل طعن السيف، لكن الطامة الكبرى هي أن المتكبّر يجدّف أيضًا على الله ولا يقبل شخصه ويهاجم كلامه المقدس. قال الحكيم قديمًا: " لان الشرير يفتخر بشهوات نفسه، والخاطف يُجدّف. يُهين الرب. الشرير حسب تشامخ أنفه يقول: " لا يُطالب". كل افكاره

أنه لا إله (سفر المزامير ١٠: ٣- ٤).
للأسف، فإن شخص المسيح وخلاصه للبشريّة، لهما نصيب الأسد عادةً في تجديف المجدّفين.
إنه حضيض الفساد البشري الذي ينكر فيه الإنسان وجود الله وسلطانه، بل ويحاول أن يظهر هو نفسه كإله، حالماً بذلك الوهم الذي غرسه إبليس في ذهن أمّنا حواء في جنة عدن: " وتكونان كالله" (سفر التكوين ٣: ٥). لقد استساغ الملك هيرودس ذلك قديمًا عندما قال عنه أهل صور وصيدا: " هذا صوت اله لا صوت إنسان" (سفر أعمال الرسل ١٢: ٢٢) وكثيرون يتمنّون ذلك لأنفسهم حتى اليوم.

■ غير طائعين لوالديهم

هل تصدّق أنّ من يتعالى بل ويجدّف على الله، يمكن أن يحترم ويطيع والديه بشكل صحيح؟ إنّ إكرام الوالدين هي الوصية الخامسة في الوصايا العشر، لكنّ الوصايا الثلاث الأولى تتعلّق بعبادة الله ومهابته، لذلك فمن يتعدّى على الله ولا يعتبره، لا يمكنه أبدًا أن يقدّر والديه حق تقدير.
بكلمات أخرى فإنّ عدم الخضوع لله سيظهر دون شك في عصيان الوالدين، وهكذا تقلّ هيبة وسلطة الوالدين كثيراً ممّا يؤدّي بالتالي إلى التفكك المستمر للعائلات، كما يُلاحظ بأكثر وضوح في السنوات

الأخيرة.
حاول بعض أحبار اليهود المساومة على ذلك قديمًا عندما أنشئوا تقليدًا يعفي الابن من مساعدة والديه المحتاجين، ان كان يكرّس ممتلكاته لله، فكان ذلك إبطالاً لوصية الله في إكرام الوالدين، وقد شجب السيّد المسيح ذلك بكلّ حزمٍ، قائلاً لهم: مُبطلين كلام الله بتقليدكم (انجيل مرقس ٧: ٩- ١٣).

■ غير شاكرين

تستمر السلسلة إذ أنّ من لا يقدّر والديه الذين أنجباه وربّياه، فمن المؤكّد أنه لا يحترم ولا يشكر الآخرين. آه كم نفتقد التقدير والشكر والعرفان بالجميل في هذه الأيام!!
مرّة أخرى يظهر أنّ أسوأ ما في الأمر هو انعدام الشكر لله على خليقته ومحبّته وعنايته وخلاصه ورحمته... ما أصعب كلمة "جاحد" وكأنّي بالإنسان يقول لله: " ابعد عنّا وبمعرفة طرقك لا نُسرّ. من هو القدير حتى نعبده وماذا ننتفع إن التمسناه؟"(سفر أيوب ٢١: ١٤- ١٥).
كم منّا يشكر الله على نسمة الحياة وعلى الأشياء اليومية الأساسية من هواء ومأكل ومشرب؟ لكن إن كنّا لا نقدّر ذلك فلماذا نشكر الآخرين؟؟
في السنوات الأخيرة، ألاحظ كمدرّس أكثر وأكثر ندرة استخدام كلمات إنسانية أساسية مثل: شكرًا، من فضلك، لو سمحت وغيرها من

الكلمات الدمثة، حتى يُخيّل لي أحياناً أنّها قد تختفي سريعًا من حياتنا. على فكرة، ارسال "لايك" على المواقع الاجتماعية لا يعني التقدير بالضرورة، فكثيراً ما يكون ذلك مجاملة الكترونية تهدف للحصول على مثلها بالمقابل.

دنسين

تتوالى الصفات الدنيئة في هذه القائمة السوداء التي تفضح حقيقة شرّ الإنسان. إن للجحود (عدم الشكر) متلازمة قبيحة اسمها الفجور، فعدم الإيمان بالله الذي يقود الى عدم تقدير الآخرين، سريعًا ما يصل بالإنسان إلى التسيّب والفساد. اسمع ما قاله داود النبي قديمًا: قال الجاهل في قلبه: " ليس إله"، فسدوا ورجسوا بأفعالهم. ليس من يعمل صلاحًا. الرب من السماء أشرف على بني البشر لينظر هل من فاهم طالب الله؟ الكل قد زاغوا معًا فسدوا، ليس من يعمل صلاحًا ليس ولا واحد (سفر المزامير ١٤: ١- ٣).

أسوأ ما في الأمر أنّ كثيرين منّا يشاركون في فعاليات اجتماعية خيرية وأحياناً دينية، دون أن يكون لواحدنا علاقة شخصية مع الله. ما هي اذن دوافعنا وأهدافنا في المشاركة بمثل هذه الأعمال الخيرية ؟؟ سؤال للضمير!! من ناحية أخرى، ما أكثر ما نسمع اليوم التبريرات للمثلية الجنسيّة (الشاذة) وللعلاقات النجسة خارج اطار الزواج بكل

أشكالها وأسمائها، أمّا استباحة كل الوسائل للسرقة والتعدّي على الآخرين فحدّث ولا حرج.

■ بلا حنوّ

أين نحن من الحنان والعواطف الإنسانية في وسط عالم تميّزه اللامبالاة، فالأخ والأخت والأصدقاء صار يميّزهم الافتقار إلى المشاعر الإنسانية الطبيعية. كيف لا وهم يعيشون في عالم بلا قلب!

إنّ هذه الصفة تنحدر بالإنسان الذي خُلق على صورة الله، إلى مستوىً أدنى من الحيوانات التي حتى بغريزتها الحيوانية تحنو على صغارها.

لاحظ أنّ مؤسسة العائلة تأذّت كثيراً من استفحال هذه الصفات المذكورة. عدم طاعة الوالدين، الفساد الأخلاقي وتضعضع رباط العواطف البشريّة، كلّها تساهم في خراب العائلات، لكن السبب الأساسي هو أن الله لم يكن حجر الأساس التي بُنيت عليه تلك العائلات، لذلك ولشدة للأسف، فسقوطها – وان بقيت شكلاً- سريع ومُريع.

■ بلا رضى

هل يمكن لمن يرفض ويقاوم العواطف الإنسانية أن يرضى ويقنع؟ إنه حتى لا يقبل أو يلتزم بعهد، لأنه أصلاً لا يتنازل عن مواقفه بأيّ حال من الأحوال، ومن لا يحافظ على العهود، لا يمكن التفاهم معه للوصول إلى

حلول وسطيّة توافقية.

ألا نسمع التأفف في كل مكان... أفٍ من هذا، ولماذا ذاك؟ مع فلان أكثر مني... وأنا أيضًا استحق وأريد... أكثر وأكثر.

نعم، إنّ عدم الرضى ينشئ التذمر المستمر لأنّ الإنسان يريد المزيد من كل شئ ومن كل واحد، ليس مجرّد طموح بل طمع في كل شئ، وهو سعي دائم ومخطّط، فكريًا واحيانًا عمليًا لسلب الآخرين ما يخصّهم.

■ ثالبين

اتهامات، وشوشة، نميمة وشكوى على الآخرين، ليست هذه فعاليات لتمضية الوقت، لكنها من صفات الشيطان المشتكي على إخوتنا... أمام إلهنا نهارًا وليلاً. (سفر الرؤيا ١٢: ١٠). النميمة تدخل عميقًا إلى الإنسان وتشوّش أفكاره وتشوّه صورة الآخرين، فتعطّل العلاقة معهم. الإنسان عمومًا غير مؤهل لمعالجة القضايا الهامة بالأساليب الصحيحة، لأنه هو نفسه محتاج الى علاج من سلطة الخطية على حياته. إنّ ذلك الغارق في هذه الصفة الرديئة، تتغلغل فيه عميقًا روح الانتقام، فيستغلّ كل فرصة سانحة لطعن وتجريح الآخرين وبخاصة في غيابهم. لاحظ أن الشخص الذي يمارس هذه الخطية يستثني الله المحب من حساباته، لذلك قيل عن مثل هؤلاء " نمّامين مفترين،

مبغضين لله، ثالبين متعظّمين مدّعين، مُبتدعين شرورًا" (رسالة رومية ١: ٣٠). ليس عبثًا وضعت كراهية الله في وسط هذه القائمة الفاسدة، لأن الذي لا يحبّ الله لا يستطيع أن يحبّ الآخرين ويذكرهم بالخير.

■ عديمي النزاهة

"الغاية تبرّر الوسيلة" ليست مجرّد قول مكيافيلّي المأثور، لكنها أسلوب حياة كثير من الناس. إنه طريق مفتوح وتصريح مشروع للتصرّف كيفما نريد بغرض الوصول إلى غايتنا المنشودة.
هنا طبعًا تُمحى كلمات مثل "عيب"، "ممنوع"، أو "غير لائق" وغيرها من قواميس الكثيرين. هذا الأسلوب صار سائدًا في الدول والمؤسسات والعائلات فلا أمانة في الشعارات والخطب الرنانة التي تتفنّن في الكلمات الكبيرة والوعود الواهية. أضف الى ذلك عدم الأمانة في العمل وكذلك الخداع والكذب والانحطاط الرهيب في كافة المعايير الأخلاقية.
تظهر هنا صفة عدم الانضباط والتحكّم في النفس والرغبات، مثل سيارة تعطلت فيها المكابح (دواسة البريك)... وليس اللسان فقط هو المتسيّب، بل النظر والفكر وكل ما يلزمه ضبط، غير مضبوط.

■ شرسين

ما أصعبه من مشهد يظهر فيه الإنسان كوحشٍ غير مروّض، ليس عنده حدود ولا قيود ولا ضوابط. إنه يهاجم وينهش بشراسة وقد يقتل بلا رادع ولا مانع، فهو كمدينة منهدمة بلا سور لأن ليس له سلطان على روحه (سفر الأمثال ٢٥: ٢٨).

من جملة أقوال الله عن فجور الناس أنّهم "مشحونين حسدًا وقتلاً وخصامًا ومكرًا وسوءًا" (رسالة رومية ١: ٢٩). قد يقول قائل: هذا الوصف يلائم أعتى المجرمين مرتكبي أفظع الجرائم، لكن الصدمة أن المقصود هنا هو الإنسان العادي حسب طبيعته الفاسدة حتى لو كان يلبس أفخر الثياب ويعيش في أرقى المستويات اجتماعيًا وثقافيًا وماديًا... ببساطة: هذا هو الإنسان!

■ غير محبّين للصلاح

كما إنّ الشيطان هو عدو كلّ خير، كذلك يصير كل من يسير في دربه غير محبٍ للخير ولمَن يعمل الخير. إنّهم لا يعملون الشرور فحسب، بل يُسرّون أيضًا بأمثالهم الذين يفعلونها. للأسف، إنهم بعيدون إلى درجة العمى عن كل شئ صالح، فهم غارقون في كراهية فظّة لكل أنواع الخير. هل تعلم كم من الناس يروّجون للشرّ على مختلف

أنواعه ويطوّرون أو يتبنّون أحدث الأفكار النجسة لإغواء الآخرين للانزلاق في بؤر الفساد المختلفة. نجاح هذه الخطط في مسعاها واضح، فالكل يسمع ويعلم أن أكثر مواقع الانترنت رواجًا في كل دول العالم هي المواقع الاباحية والدعارة والشر بأنواعها.

يصف الكتاب المقدّس هؤلاء بصفات مختلفة في انتاجهم للشر والفساد، فيقول مثلاً أنهم يخترعون إثماً... مبتدعين شرورًا... مشتهين شرورًا، بل أن فم الأشرار ينبع شرورًا (سفر المزامير ٦٤: ٤، سفر الأمثال ١٥: ٢٨).

■ خائنين

الخيانة سمة بارزة في الأيام الأخيرة، فخيانة الأهل والناس صارت طبيعية ففُقد الإحساس بشناعة غشّ الآخرين وخداعهم وتضليلهم لأجل مآرب شخصية خسيسة.

في كل مكان صرنا نجد خيانة الأصدقاء والشركاء لأجل المصلحة الشخصية، والتي تكشف روح الغدر والانتقام في أبشع صورها... لقد استشرت الخيانة في القلوب تعيث فساداً بشراسة وبلا رادع.

هل لاحظت أنّه حتى الخيانة الزوجية صارت تسمّى بمسمّيات أخرى وتُعطى ألف مبرّر لإراحة الضمير، لكن عبثًا... إنها تعدٍ على الله الذي شرّع الزواج وكذلك خيانة لشريك الحياة الذي ارتبطت به بعهد دائم

أمام الله والناس.

■ مقتحمين

إنّ من أبرز صفات الأيام الأخيرة أيضًا هي التعدّي، لأن الذي يخون لا يهتم بأي انسان آخر، فالناس بجملتها تعيش بلا انضباط، فهم يتكلمون ويتصرّفون دون أن يكون لعقولهم أدنى سيطرة عليهم أو حتى توجيه. من القصص المعبرّة في الكتاب المقدس أحد توأمين أوشك أخوه أن يخرج أولاً من رحم أمه، لكن هذا الآخر عندما أرجع أخوه يده إلى داخل اندفع قبله خارجًا فدعوه " فارص"، أي اقتحام. في أيامنا هذه، قد يسمّي البعض الاقتحام انتهازاً للفرص، ريادة أو طلائعية، لكن عندما يكون الانفلات والدوس على الآخرين والقيم والمبادئ مميّزاً لذلك، فهو اقتحام وتعدٍ لا أقل.

■ متصلّفين

وصلنا إلى الغرور، فبعد أن ابتدأ الإنسان بمحبة الذات والمال متعظّمًا، فإنه يصل بسهولة وسرعة إلى هاوية الغرور والكبرياء. إنها " الأنا" المتربعة على عرش الحياة بلا مساومة وكأن الإنسان لا يرى إلاّ نفسه. عبثًا قد يقول ذلك الشخص أنه يهتم بالله أو بالآخرين فالعالم كلّه صار يدور حوله وحوله وحده.

مثالهم الأكبر هو الشيطان الذي أراد أن يصعد الى السموات ويرفع كرسيّه... ويصير مثل العلي (سفر أشعياء ١٤: ١٣، ١٤). انه رائد مدرسة العجرفة والمباهاة والرغبة العارمة في الامتلاك مع أنّ مصيره المحتوم هو في جهنّم، كما أعلمنا الله. للأسف، فإنّ خريجي هذه المدرسة المنتنة كثيرون جدًا ممّن ربطوا مصيرهم بمصير الشيطان البائس، لانّ النار الابدية معدّة أصلاً لإبليس وملائكته (انجيل متى ٢٥: ٤١).

■ محبّين للّذات دون محبة لله

في هذا المنحدر الرهيب نحو الهلاك، تلمع مفارقة مصيرية، فإما محبة الله أو محبة اللّذات. بكلمات أخرى، إن لم تكن محبة الله فوق كلّ محبة، فإنّ محبة اللّذات ستحتل مركز الصدارة وتقود الشخص في طريق المتع الحسيّة والملذّات الوقتية التي تدمّره ومن حوله. اسمع هذا التشبيه لإنسان سقط في خطية الزنى " ذهب وراءها لوقته كثورٍ يذهب إلى الذبح... كطير يسرع إلى الفخ ولا يدري أنه لنفسه" (سفر الأمثال ٧: ٢٢- ٢٣).

المحزن أنه بينما يقول الله في الكتاب المقدس: " لذّاتي مع بني آدم"، فان بني آدم يبحثون عن اللذّات بعيدًا عنه، ويسعون وراء اللذّات

النجسة المحرّمة والتمتع الوقتي بالخطية.

■ لهم صورة التقوى، ولكنهم منكرون قوّتها

إنّ واحدة من سمات الأيام الأخيرة هي التديّن الظاهري وهو أخطر ما يمكن أن يحدث في حياة إنسان. إنه " قناع" يضعه الشخص ليظهر بمظهر خارجي ملفت للآخرين، مظهر يستسيغه الناس، لكنه يخفي حقيقة الشخص نفسه في الداخل!! طبعًا يمكن للإنسان أن يخدع كثيرين ولكن الله عالم بداخل الإنسان وخارجه ولا يمكن خداعه.

قناع القداسة والتديّن الخارجي هو ما نتكلم عنه، إنه مظهر زائف خالٍ تمامًا من القوة الروحية، بكلمات أخرى " تقوى بلا قوة". أخطر ما في الأمر أنّ القناع مقنع جدًا ويشكّل- للأسف- غطاءً مثاليًا لعمل الشر.

هكذا يعيش كثير من الناس حياة الرياء والازدواجية، فيحيون في الخطية وفي الوقت ذاته ينادون باسم الله، دون أن يعرفوه معرفة اختبارية!

ألا نُصدم بل ونشمئز من التصرّفات اللاأخلاقية المفضوحة التي يعملها كثير ممّن يتسربلون ملابس التديّن بأنواعها؟؟ كم من أناس يتشدّقون باسم الأنبياء والأولياء والقديسين ويمارسون الشعائر ويتغنون بالشعارات الدينية، لكنهم يخفون تحت عباءة التديّن أشنع الشرور!؟ انهم يغيّبون أنفسهم ويخدّرون الآخرين بهيئة تديّنهم،

لذلك يصدق فيهم تعبير " الدين أفيون الشعوب".

ثلاثية محبّة خطيرة

لاحظ أننا نتحدث عن أناس متدينون ظاهريًا، لكنهم غارقون بالكلية في ثلاثية خطيرة للغاية:

١. محبّة الذات: أنا ... وبعدي الطوفان، هكذا يقول الكثيرون في السرّ والعَلن. صرنا نسمعها على الملأ: " لا يهمّني أحد آخر، أنا الأول، قبل أخي وأمي وأبي وزوجتي وأولادي".

٢. محبّة المال: كان أحد معارفي يقول بصراحة: أنا أعبد المال، لكن ربّما يكون أخطر منه ذاك الذي ينكر ذلك، رغم أنه يعيش حياة العبودية للمال بالكامل.

٣. محبّة اللّذات: هنا يعيش الشخص حياة التمتع الوقتي بالخطية ولذّاتها المتنوعة التي تستولي على كل الكيان، وتُغلق عليه في جو من النشوة يصعب الخروج منه.

الخلاصة أن محبتهم لأنفسهم تُنتج تعلقًا بما يُشبع ذواتهم وهو امتلاك المال وإنفاقه في إشباع كل شهواتهم ومُتعهم الحسيّة.

أخيراً... قد يقول قائل: أنا لست على شاكلة هؤلاء، فأنا لطيف ومؤدب، أساعد الآخرين وأحاول التقرّب إلى الله.

عزيزي، ليس المقصود بهذه الصفات المذكورة تجريحك أو اتهامك أنت أو غيرك، لكنها قائمة سطّرها الله لتستعرض صورة الإنسان

الطبيعي. تعلن كلمة الله صراحةً، أنه رغم كل إمكانيات ومحاولات الإنسان لإرضاء الله " ليس من يعمل صلاحًا، ليس ولا واحد".

أكثر من سؤال

هنا لا بدّ من عدة اسئلة هامة: هل هناك أحد ليست به الصفات المذكورة؟ أو بتعبير آخر: هل منّا من هو بلا خطية؟؟

نحن نعرف أنفسنا في العمل أو الفعاليات الاجتماعية أو حتى الدينية، وليتنا نمتحن أنفسنا من خلال سؤال طرحناه في البداية: هل لي علاقة شخصية مع الله؟ سؤال مرادف: هل أُرضي الله حقًا، وهل في محاولاتي المستميتة لإسكات ضميري أو اراحة نفسيتي، أقترب إلى الله بالفعل؟

كل إنسان له كامل الحريّة في الإجابة بما يريد، لكن كلمة الله تعلن بوضوح أن أجوبة كل الأسئلة التي طُرحت هي سلبية!

الأجوبة سلبية والصورة قاتمة، لكن الله في المشهد وهو يدعو الجميع أن يأتوا إليه. إنه وقتٌ للرجوع الحقيقي إلى الله... إنه وقت التوبة وباب التوبة مفتوح حتى الآن.

تعالوا معًا نسمع قصة جميلة وواقعية عن الرجوع، رواها السيّد المسيح.

قصة الإبن الضال

وقال: انسان كان له ابنان. فقال أصغرهما لأبيه: يا أبي أعطني القسم الذي يصيبني من المال. فقسم لهما معيشته. وبعد أيام ليست بكثيرة جمع الابن الاصغر كل شيء وسافر الى كورة بعيدة وهناك بذّر ماله بعيش مسرف. فلما أنفق كل شيء حدث جوع شديد في تلك الكورة فابتدأ يحتاج، فمضى والتصق بواحد من أهل تلك الكورة فأرسله الى حقوله ليرعى خنازير. وكان يشتهي ان يملا بطنه من الخرنوب الذي كانت الخنازير تأكله، فلم يعطه احد. فرجع الى نفسه وقال: كم من اجير لابي يفضل عنه الخبز وانا اهلك جوعا! أقوم وأذهب الى ابي واقول له: يا أبي، أخطأت الى السماء وقدامك، ولست مستحقا بعد ان ادعى لك ابنًا. اجعلني كأحد أجراك. فقام وجاء الى ابيه. وإذ كان لم يزل بعيدا رآه ابوه، فتحنن وركض ووقع على عنقه وقبله. فقال له الابن: يا أبي اخطأت الى السماء وقدّامك، ولست مستحقـًا بعد ان أدعى لك ابنـًا. فقال الأب لعبيده: اخرجوا الحلة الاولى وألبسوه، واجعلوا خاتمًا في يده وحذاءً في رجليه، وقدموا العجل المسمن واذبحوه فناكل ونفرح، لأن ابني هذا كان ميتـًا فعاش، وكان ضالاً فوجد، فابتدأوا يفرحون. (انجيل لوقـا ١٥: ١١- ٢٤).

■ قصة عائلة

تحكي قصتنا عن رجل كان له ابنان وأراد ابنه الأصغر أن يرث أباه قبل أن يموت. إنها قصة واحد منّا أراد الاستقلال خارج البيت والتمتع بالمال وبكل ما يشتريه المال في حرية تامّة.

أمامنا موقف ليس منّا من لم يختبره في يوم من الأيام ولو قليلاً، لأنه ينبع من طبيعة الإنسان التي تسعى للاستقلال عن الله وعن كلّ سلطة عائلية ومجتمعيّة. ألم يكن مرّة لسان حالي وحالك: أريد أن أعيش على هواي وأحقّق أحلامي وأنفّذ مخطّطاتي وأتمتّع بكلّ ما تشتهيه نفسي بلا قيد أو رقيب!

العجيب وعكس المألوف في المجتمع آنذاك، أن الأب قبِل أن يعطي للابن المال والحريّة. يمكننا أن نقول أن هذا الأب هو صورة للآب السماوي الذي يعطينا المجال والحريّة لاختيار أسلوب حياتنا ومواقفنا بأنفسنا.

■ أحلام وحريّة

سرعان ما أخذ الابن الأصغر نصيبه من الميراث وانطلق بعيدًا عن الجميع، ومرّت الأيام... وفرح الشاب بشبابه وماله وابتدأ يحقّق كل ما كانت تشتهيه نفسه. أكلَ وشربَ وعمل كلّ ما يرغب وكما يحدث عادةً في مثل هذه الأحوال، ينحدر ذلك المتحرّر الغني إلى بؤرة الشهوات

والموبقات. انه يريد أن يذوق كلّ شهي ويجرّب كل "الممنوعات" التي حُرم منها طيلة حياته.

اتخيّله يصرّح: " كانوا يقولون لي عن هذا عيب وعن ذاك حرام، هذا لا يليق بك فأنت ابن فلان، احترم سمعة أبوك... معي الآن المال وكل ما كنت أريد وأشتاق أن أعمله فسوف أتمتع به حتى النهاية، أتوق أن أرى العالم الكبير وأذوق كل ما لذّ وطاب، وأعمل كل ما أريده. هل هناك أحلى من أن أعيش لنفسي وألتذّ في حياتي حتى أحسّ بطعم الحريّة ؟"

يا للأسف، فانّ هذه الحريّة الوهميّة تقود سريعًا إلى الضياع والفجور والنجاسة بكل أنواعها. إن ضياع الانسان يؤدي الى ضياع ما له أيضًا، فحتى المال الذي استخدمه ذلك الفتى، سرعان ما تلاشى فلقد بذّر كل ما عنده وبقي... وحيداً.

لاحظ أنه جمع كل شئ ومضى وأنفق كل شئ. ان كل شئ في العالم قد يُسرق، يضيع، أو يُبذّر ويتبخّر بأسرع ممّا نتصوّر.

بكلمات أخرى، أي شئ في العالم يمكن أن يصير لا شئ.

ما أكثر الأحلام التي تجول في أفكارنا كما كانت تُداعب مخيّلة هذا الشاب حتى امتلكته، لكن على قدر ما تكون الأحلام والتوقعات كبيرة، تكون الخسارة أليمة والسقوط عظيمًا. هكذا وبأسرع مما نتصوّر، قد تتحول الأحلام الوردية الى كوابيس رهيبة.

■ الجوع الشديد

بعد أن استُنفذت كل الموارد، حدث جوع شديد في المكان الذي كان فيه الشاب ولكي يقدر أن يعيش ويشبع خبزاً، اضطر أن يعمل في رعاية الخنازير. صحيح أنه عمل مشروع ليست فيه شائبة، لكن تأمل معي هذا الشاب المستهتر الذي ترك بيت أبيه وكان فيه محترمًا وربما مدلّلاً، وقد وصلت به الحال أن يرعى الخنازير بقذارتها ورائحتها الكريهة، بل هل هناك أحطّ من أن تشتهي أن تشبع من خرنوب الخنازير ولا تُعطى منه لتأكل؟

آهٍ منك أيها البائس، يا من بعت الأب الغالي وبذّرت المال الرخيص! ماذا بقي لك سوى الجوع والوحدة وخيبة الأمل ؟ قد يكون قد وصل إلى هاوية اليأس والبؤس، أو ربما هو على قاب قوسين أو أدنى من الانتحار. ما أصعب فراغ القلب وجوع النفس الأقسى من جوع الجسد. إن كل من يبتعد عن الآب السماوي، سوف ينحدر حتى يصل به المستوى إلى الحضيض، بكل المقاييس وعلى كافة المستويات.

■ عمل الضمير

مع وخز الجوع بدأ أيضًا وخز الضمير وعندما يعمل الله في القلب والضمير، يستفيق الإنسان أحيانًا على حقيقة نفسه ووضعه المزريين. لقد بدأ روح الله بتبكيت هذا الضال على خطيته وتوجيهه كيما يشعر

ويكتشف ليس فقط حالته بل أيضًا شخص الله وصلاحه ويده الممتدة إليه، مشتاقة أن تمسك بيده المتهالكة لترفعه من وضعه التعيس.

بدأ هذا الإنسان يشعر بالاحتياج إلى الله ويا له من شعور!!

فرجع إلى نفسه

وحيدًا دون عائلة أو أصدقاء ولا مال وحتى دون ضمان قوته اليوميّ، وصلت حالة هذا الإنسان إلى الحضيض ماديًا، نفسيًا واجتماعيًا...

وأفلس من كل ناحية، بل وأغلقت كل الأبواب أمامه، هنا بدأت براعم التوبة تظهر في ثنايا حياته المحطّمة.

رجع إلى نفسه وبدأ يراجع نفسه ويعيد حساباته، انهمرت دموعه وهو يقول في نفسه: " لقد خسرت كل شئ ووصلت إلى أسفل الدرك. بذّرت كلّ ما أخذته من أبي، وكل المدّعين أنهم أصدقائي اختفوا بعد آخر فلس دفعته عنهم! يا ويلي، أين كنت وأين صرت؟ أنا الابن الغالي الصغير، صرت راعي خنازير؟!!"

أقوم وأذهب إلى أبي

ربما كان هذا الشخص سعيدًا عندما ترك البيت، لأنّ عنده الكثير ليكسبه، لكن في طريق الرجوع إلى أبيه لم يكن لديه ما يخسره. قد تكون قد جرّبت العالم بملذّاته وشهواته وخطاياه، لكن عندما تشعر

بالإفلاس وتستجيب لله الذي يجذبك بمحبته، سترى بعين الإيمان أن كل ما مضى كان بالحقيقة حفنة خادعة من الخلاعة والتجديف والقباحة... ليس أكثر.
لاحظ أن الاقتناع العقلي بتعاستنا واحتياجنا إلى الله مهم جدّا، لكن إن لم يصاحبه قرار الرجوع بإرادة ثابتة فإننا نبقى في حالة التعاسة والبؤس.
لا يكفي أن تقرّ بوضعك، لكنك تحتاج ان تقرّر تغييره... قرار وليس مجرّد اقرار!
أيها العزيز، هل تريد أن ترجع إلى الله بكل قلبك؟ إذن نفّذ ما اقتنعت به ولا تؤجّل اتّخاذ الخطوة الحاسمة. أطلب من الرب أن يفتح لك باب الرجوع ولكن عليك أن تخطو خطوة الرجوع بنفسك وبإرادتك الحرّة.

■ أخطأت إلى السماء وقدّامك

مراجعة النفس وإعادة الحسابات لكل ما حدث في حياتي هو أمرٌ هامٌ في طريق العودة إلى أحضان الله. لقد اعتبر هذا الشاب تركه لبيت أبيه خطية في حقّ الله وفي حقّ أبيه، فانكسر حزينًا على خطيّته، لكن ليس حزنًا يائسًا بل حزن مبارك أنشأ في قلبه التوبة.
التوبة ليست مجرّد الحزن على الخطية، بل الابتعاد عنها أيضًا. أيضًا ليس هناك توبة حقيقيّة، دون إصلاح المواقف تجاه من أخطأت إليه،

الله أولاً ثمّ الآخرين. التوبة هي قناعة قلبية أعلن من خلالها بوضوح أنّني أريد تغيير الفكر الخاطئ تجاه الله باعترافٍ واضح، كما قال داود النبي: " إليك وحدك أخطأت والشرّ قدّام عينيك صنعت" (مزمور ٥١:٤).

التوبة هي رجوع بانكسار إلى الله من كل القلب لنوال الغفران. هي خطوة أقول فيها: " يا رب، أنا خاطئ غير مستحق فأرجوك أن تقبلني".

■ اجعلني كأحد أجراك

كان الابن يرجو مجرّد قبول أبيه له، فهو بحالته المزرية وتعدّيه المُشين ولباسه الرثّ النتن، لم يكن يحلم بأكثر من أن يجد مكانًا يأويه ولقمة تحميه من الجوع. بكلمات أخرى أن يعمل عنده كأجير ليضمن معيشته يومًا فيومًا.

وصل وضع هذا الفتى الى الحضيض وربما كان يناجي نفسه: " إن قبل أبي أن أعمل أجيراً عنده، فمن المؤكد أن أحصل على وجبة، بينما هنا صرت أحسد الخنازير على الخرنوب الذي تأكله، وأنا أتضوّر جوعًا".

■ فقام وجاء الى أبيه

رغم كل حساباته وتخطيطاته للعودة لم يكن الشاب يعرف أو يقدر أن يتنبأ عمّا ينتظره في بلده عندما يصل بثيابه الرثّة ورائحته الكريهة.

كانت التوقعات كثيرة بدءًا بنظرات الناس الجارحة وربما السخرية والشماتة أو الشتائم واللعنات عليه كابن معاند ومارد، ناهيك عن امكانية رجمه وهي عقوبة الناموس اليهودي لأمثاله.
سار وهو يفكّر مرتعدًا ممّا قد يلاقيه في مدينته من الهوان، لكن شيئًا واحدًا دفعه لمتابعة المسير... كان راجعًا الى أبيه! ربما كان يقول في قلبه:

راجع للآب الحنّان   واثق انّ أنا ليّ مكان
بذنوبي أنا راجع   بدموعي أنا راجع
واثق انّ أنا ليّ مكان

■ رآه أبوه فتحنّن

" وإذ كان لم يزل بعيدا رآه أبوه فتحنن وركض ووقع على عنقه وقبّله".
ما أروع هذا المشهد المؤثّر في هذه القصة الجميلة، مشهد الأب الحنون الذي اسرع إلى ابنه العاق العائد اليه ليحتضنه ويقبّله. انه يصوّر أيضًا عمل الله المبارك الذي يبادر ويقترب بنفسه إلينا، إنها الأحضان الأبوية الحانية المشتاقة لقبول ومسامحة كل خاطئ تائب!
مهما كان وضعك فإنّ قلب الله المحب الحنّان ينتظرك، إنه حتى ينتظر أبسط خطوة تعبرّ انك تريد الرجوع إليه. إن شوق الله إليك

وقلبه الملئ بالحنان والحب والإشفاق، يُظهر بوضوح أنه يقبلك ويسامحك متى رجعت تائبًا.

الله يحبّك ويريدك كما أنت " الله بيّن محبته لنا إذ ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنا" (رسالة رومية ٥: ٨). لقد مات المسيح على الصليب ليظهر المحبة الالهية التي تقبل الخاطئ التائب وتعطيه غفرانًا تامًا وتجعله من أهل بيت الله، متمتعًا بخلاص الله وعنايته ووجوده معه الى الأبد.

لباس جديد

كانت المفاجأة كبيرة، لكن ذلك لم يكن مجرّد عاطفة وقتية، فقد كساه الأب بالحلّة الأولى وقدّم له خاتمًا ثمينًا يذكّره بمكانته كابن ولم ينس حتى قدميه الحافيين المشققين فأعطاه حذاءً لينتعله، كان الأب يُعلن بهذا العمل عن قبوله اياه كابن معزّز مكرّم في بيته.

طبعًا هذه مجرّد قصة، لكنها تمثّل قبول الأب السماوي للخاطئ الضال المتمرّد الذي تاب وصمّم على الرجوع إليه.

هذا هو الأب الحقيقي الذي يقدّم الغفران ويفيض بالحنان ويكسو حتى الأبدان.

ما أحلى تلك النقلة التي يعملها الله في حياة كل تائب راجع بدموع، فهو "الذي أنقذنا من سلطان الظلمة ونقلنا إلى ملكوت ابن محبته"

(رسالة كولوسي ١: ١٣).

لقد أنقذنا ونقلنا:

من الذلّ والعبودية	إلى الإكرام والبنوّة
من البعد والغربة	الى القرب والشركة
من الكورة البعيدة	الى بيت الآب المُحب

حياة جديدة

أيها العزيز، ابتدأنا الكتاب بقائمة صفات سلبية لأنها صفات الانسان الطبيعي البعيد عن الله، لكن عندما يأتي الانسان الى الله ويقبله في حياته فإنّ الله يباركه ويلمس كل ما في حياته فيحوّل:

المرارة الى حلاوة

والقسوة الى لطف

واللعنة الى بركة

والحياة البائسة إلى حياة فُضلى.

عندما ترجع إلى الله بالإيمان فأنت تأخذ حياة الله، وتنطبع فيك صفاته الأدبية أيضًا:

فان كان الإنسان الطبيعي، كما ذكرنا محبًا لنفسه، ففي حياة الإيمان يصير محبًا لله وللآخرين.

• بدل العبودية للمال والتعلّق المرَضي به فانه يستعمل المال كوكيل

عليه من الله.

• بدل التعظّم والكبرياء يتعلّم الإنسان المؤمن ما هو التواضع الحقيقي.

• مكان التجديف والتعدّي يحلّ الشكر لله وللآخرين.

• بدل النجاسة والقساوة يتسربل المؤمن بالقداسة والحنان والطاعة للوالدين.

عندها فقط يمكن لكلٍ منا أن يعرف ويختبر ما هي النزاهة والصلاح والأمانة إلى ما هناك من صفات رائعة لا يمكن أن يعطيها سوى الله نفسه ولا يقبلها ويعيشها إلاّ من اختبر شخصه وذاق حبّه متمتّعًا بخلاصه الأبدي.

■ هل رجعت أنت؟؟

نعم نحن في الأيام الأخيرة وقد فصّلنا سماتها ومميّزاتها. قد يكون ما سلف كلامًا مقنعًا لكثيرين فالتعابير والمحفّزات والنتائج رائعة وجذّابة، لكن لا يمكن أن نتمتّع بها إن لم نخطُ خطوة عمليّة ننتقل بها من القناعة بالموضوع إلى القرار العملي لإتّباع الرب.

رأينا ذلك الإنسان الضال يترك الضياع والبعد لكن ليس إلى فراغ، بل يعود إلى حضن أبيه... يعود إلى البيت.

إننا نتحدث هنا ليس عن مجرّد امتناع أو رجوع عن الخطية والشر، بل

أيضًا عن رجوع إلى الله. تقول الكلمة المقدّسة: " رجعتم الى الله من الأوثان لتعبدوا الله الحي الحقيقي" (رسالة تسالونيكي الأولى ١: ٩).

هل تريد أن تختبر محبة الله وخلاصه وأن يكون لك نصيب في خلاصه العجيب؟

تعال بتوبة صادقة الى الله، معترفًا أنك خاطئ، قابلاً غفرانه الذي صنعه بموته لأجلك على الصليب. سر معه بالإيمان وستجد أن لك مكانًا عنده ونصيبًا معه، وسوف تتمتّع بالشركة معه وتذوق لذة الراحة والسلام والكفاية في المسيح.

● لا تؤجل... انه ينتظرك

متأثرًا بقصة الابن الضال، كتب أحد الشعراء ترنيمة تحثّ على الاقتراب الى الله:

جئتكَ ابي لأبتغي طعامًا بعد أن ضيّعتُه مالاً حرامًا
هل ستعفو ثم تعطيني سلامًا بل تقبّلني بحب قد تسامى
غافرًا كلّ خطاياي تمامًا

عندما تصلك رسالة محبة الله، تسمع صوته العذب قائلاً: " اليوم يوم خلاص... اليوم ان سمعتم صوته فلا تقسّوا قلوبكم". إن قلبه المشتاق يدعو كل بعيد مُتعب يائس، منتظرًا من يستجيب دعوته

للراحة، قائلاً: " تعالوا اليّ يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم" (انجيل متى ١١: ٢٨).

أرجوك ألاّ تؤجل قرارك المصيري في هذا الموضوع الهام، بل ليتك الآن تسكب قلبك أمامه وتعترف أنك خاطئ وتشكره لأنه مات لأجلك على الصليب فتقبل غفرانه الأبدي لخطاياك، وتنطلق في الحياة الجديدة معه في ملء البركة.